دور البحرية الجزائرية في القضايا الإنسانية الخارجية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين

أ. مصطفى داودي/
جامعة الجلفة

إنّ الحديث عن البحر مقرونا دائما بالحضارة، وأن الحضارة على مر العصور ترتبط ارتباطا وثيقا بضفاف الأنهار وشواطئ البحار والمحيطات، ومن هنا فإنه مثلما قال المؤرخ الفرنسي (فرنان بروديل F. Braudel) : "المتحكم في البحر دوما هو المتحكم في الثروة"[1]، وهو يملك كل مقومات السيادة والقوة، إلاّ أن الكتابات الغربية وهي تتحدث عن بلدان المغرب وعلاقتها بالبحر تحاول دوما أن تربطها بجهل البحر وعدم درايتها به، وفي ذلك قال (روبير مونتان R. Montagne) : "إن المغاربة لا يحبون البحر ولا يعرفون عنه شيئا، وهو يخلق لديهم شعورا عميقا بالرعب"[2]، وفي كناية عن جهلهم بالمنتجات البحرية وصف (فرنان بروديل F. Braudel) "أن الطبخ الإسلامي لا مكان فيه لمنتوجات البحر"[3]، وأن سكان المغرب رغم أهمية المسطحات المائية لم يساهموا في النشاط البحري إلاّ بشكل محدود ومحلي أحيانا مثلما أشار (جون ديبوا J.Des pois)[4].

كل هذا يرسّخ التحامل الغربي على نفي صفات التميز لشعوب بلدان المغرب وتجريدهم من مظاهر القوة التي جعلتهم أسيادا لفترات على حوض البحر المتوسط، وكل ذلك بهدف التقليل من قيمة شعوب هذه البلدان، وإخفاء أمجادها، وكل ذلك يصب في الحيلولة دون ارتباط شعوب هذه البلدان بجذور ماضيها وجعلها مثل نباتات الرمال تظهر بسرعة وتغيب بسرعة لانعدام جذورها.

إلاّ أن الدارس لتاريخ الجزائر يجد بأنه يرتبط منذ أقدم العصور بالبحر ولهذا السبب بالذات فإن أي قراءة لهذا التاريخ لا تستحضر العمق البحري للجزائر تعد ناقصة باعتبار أن موقعها على ضفاف البحر المتوسط جعلها جزءا جوهريا في بناء تاريخها إما سلما أو حربا بل إنها في الكثير من الحقب التاريخية كانت محورا منفردا في بناء العلاقات بمختلف أشكالها حول هذا البحر بمختلف اتجاهاته، ومن هنا فإن البحر ظل دوما حاضرا في مجمل تطورات التاريخ الجزائري، ولم يقتصر دوره على المساهمة في النشاط الاقتصادي والسياسي بل تعداه إلى أدوار أخرى كان أبرزها البعد الإنساني الخارجي الذي لعبته البحرية الجزائرية، وهو بعد تشح الدراسات التاريخية في التركيز عليه سواء على خلفية انعدام وجود "أرشيف بحري" وطني يضم كل الأصول ذات الصلة بالنشاط البحري الجزائري.

باعتبار أن الخلفية التاريخية لإبراز حقيقة هذه البحرية في تلك الفترة تكمن في ثنايا تلك الأصول، وقديما قالوا : "إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها"[5].

ومن هنا تبرز إشكالية الموضوع في مدى حقيقة البعد الإنساني في نشاط البحرية الجزائرية ؟

وهل كان هذا البعد يرتبط بالقوة والمصلحة أم أنه حقيقة خلقية قيمة أملتها الشخصية المكونة لهذه البحرية ؟

وينبغي أن نوضح قبل تحليل هذه الإشكالية وأبعادها أن الأسطول البحري الجزائري لم يكن حديث النشأة ببزوغ العهد العثماني سواء من حيث مادية التكوين أو شخصية التقويم باعتبار أن البحرية الجزائرية عرفت طيلة تاريخها الطويل عدة مراحل متميزة سواء قبل بزوغ فجر الإسلام في بلاد المغرب أو بعده لمّا تشكّلت نواة هذه البحرية في إطار الأسطول الإسلامي في بلاد المغرب انطلاقا من الفتح الإسلامي لهذه البلاد في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حينما كان لهذه البحرية دور كبير في التصدي للخطر البيزنطي، خاصة بعد معركة ذات الصواري (34هـ/654م) بشواطئ الإسكندرية مرورا بإنشاء دار السفن بأفريقية في عهد ولاية حسان بن ثابت بتوجيهات من الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز (99-101هـ) رضي الله عنه واستقدام الصنّاع المهرة لهذا الغرض من مصر وغيرها مما جعل هذه البحرية تنتقل من دور التصدي إلى دور

التحدي، وذلك بإنجاز مهام كبرى أبرزها العبور إلى الأندلس (92هـ/711م)، وفتح صقلية على يد الفقيه المالكي أسد بن الفرات (142هـ/759م - 213هـ/ 828م) في العهد الأغلبي، وأصبح هذا الأسطول في مراحل متقدمة يفرض السيادة الإسلامية على حوض البحر المتوسط [6].

ومنذ القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي بدأت البحرية الجزائرية تعرف نوعا من الاستقلال عن باقي الأساطيل في بلاد المغرب، وأصبحت تشكل قوة بحرية خاصة كان لها دور مهم في مواجهة التحدي المسيحي خاصة في عهود الحماديين (1007-1163م) والمرابطين (1056- 1147م) والموحدين (1130- 1226م) وبني زيّان (1236- 1554م)، وتركزت قواعدها بمدن عنابة وبجاية ودلس ووهران والمرسى الكبير، ومع بداية العهد العثماني في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بزغ نجم البحرية الجزائرية بعد مخاض عسير وفي ظل صراع دولي عنيف من أجل السيطرة على سواحل حوض البحر المتوسط الغربي، وقد أكسبها التحكم في خيوط هذا الصراع شبه هيمنة على حوض هذا البحر، ولم تعد تقتصر مهمته على حماية الحدود الساحلية الجزائرية وضمان مصالح الدولة الجزائرية الحديثة أثناء العهد العثماني (1518-1830م) بل حملت على عاتقها بعدا إنسانيا متميزا يتمثل في الوقوف إلى جانب الشعوب المظلومة، وبات هذا البعد يمثل النشاط الأبرز في حركة البحرية الجزائرية التي نشأت أصلا تحت شعار الإنقاذ، وكان

الملفت في تحقيق هذا البعد هو أنها لم تضع موازين تفرقة بين الشعوب الإنسانية، سواء على خلفية الدين أو العرق، بل كان نشاطها مثاليا في عدالة التحرك وهو نشاط نادرا ما نقرأ نماذج عنه في نشاط بحري سابق، وقد برز ذلك عبر محطات تاريخية نكتفي بإعطاء ثلاث نماذج رئيسية تتمثل في :

01 ـ حرب الإبادة في الأندلس

لقد ارتبط التاريخ الأندلسي عبر العصور ارتباطا وثيقا بتطور الأحداث في بلاد المغرب مثلما تأثرت بلاد المغرب بتطور الأحداث هناك، ولم يشذ تاريخ البحرية عن ذلك باعتبار أن الأندلس كانت حاضرة في مجمل مراحل تكوين الأسطول البحري لهذه البلدان بدليل أن الأمر الذي جعل المرابطين أو الموحدين أو المرينيين يهتمون ببناء الأساطيل وتعميرها كان بسبب الأوضاع في الأندلس والرغبة في الاستجابة لنداء أهلها، وحبا لجهاد أعدائها.

كما كانت النكبة الأندلسية وحرب الإبادة فيها حاضرة بقوة في إبراز نجمي الأخوين بربروسا (عروج وخير الدين) ومعهما تم تشكيل الدولة الجزائرية الحديثة ونواة أسطولها البحري الذي سيكون له الكلمة الفصل في حوض البحر المتوسط وتحمّله عبأ نصرة وإنقاذ الأندلسيين بشتى طوائفهم من تلك الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها خاصة بعد سقوط غرناطة (897هـ-1492م) هذه النكبة التي لم تعرف البشرية طيلة تاريخها الطويل أبشع وأمرّ منها لدرجة

تقنينها بالمراسيم والأوامر الملكية، حيث صدر عام (897هـ-1492م) قانون الجريمة الإنسانية القاضي بتجريم المسلمين وتحريم إقامة شعائرهم الدينية وإغلاق المساجد، كما قام الكاريدينال (خمينيث) بإحراق عشرات الآلاف من الكتب[7]، وفي (907هـ/ 1501م)، منع على المسلمين حمل السلاح، وأعطيت لهم مهلة ثلاثة أيام لمغادرة الأندلس والمخالف لذلك يحكم عليه بالموت من قبل محاكم التفتيش المقامة من أجل ذلك الغرض[8]، ولم يترك لهم خيارا يخفف عنهم هذه النكبة إلاّ إجبارية التنصير والرّدة عن الإسلام بناء على المرسوم الملكي المؤرخ في (908هـ/ 1502م) من قبل الملكة إيزابيلا والذي خُيِّرَ فيه أهل الأندلس إمّا التّنصر أو مغادرة غرناطة وكلّ بلاد الأندلس، ولا يبقى ذَكَرٌ فوق سن الرابعة عشر أو أنثى فوق سن الثانية عشر بعد شهر أفريل من تلك السنة إلاّ إذا تنصروا، وخلال هذه المدة رحل عن غرناطة أزيد من ثلاثمائة أندلسي واعتبر الباقين متنصرين بموجب المرسوم، وأطلق على هؤلاء إسم (النصارى الجدد) أو (الأندلسيين المواركة)، حتى هؤلاء الذين تنصروا صدر في حقهم أمر ملكي يوم (22 ربيع الأولى 917هـ/ 20 يونيو 1511م)، يلزمهم بأن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم لمحاكم التفتيش وأن لا يتخاطبوا باللغة العربية وتعددت نحوهم لوائح الممنوعات التي تحضر الختان، وقتل كل مختن ولا وقوف اتجاه القبلة، كما حضر الاستحمام في حقهم والاغتسال وارتداء الملابس

العربية، وراح ضحية هذه المحنة عشرات الآلاف وبأبشع صور التعذيب والقتل.

ولم يكفّ الأندلسيون طيلة محنتهم عن طلب النجدة من المسلمين وممالكهم القائمة حتى قبل سقوط غرناطة، وقاموا بإرسال وفدين : الأول إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (1447-1512م) وذلك قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات ومعه رسالة حزينة من قبل الأندلسيين إلى الدولة العثمانية مرفوقة بقصيدة شعر جاء فيها[9] :

الحضرة العلية! وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهّد أقطارها، وأعزّ أنصارها، وأذلّ عُداتها. حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، مُحيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملِك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرّين، وسلطان البحرين، حامي الديار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكَهفنا وغيثنا. .لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلّد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثّرا من الحسنات بما يضاعف الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العليّة مختصة بفضائل الجهاد، ومجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السفح والصفاح، وألسنة السلاح بَاذلة نفائس

الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد."

سلام عليكم من عبيد تخلّفوا بأَندلسٍ بالغرب في أرض غربة أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخروبحر عميق ذو ظلام ولجة سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يا لها من مصيبة سلام عليكم من شيوخ تمزّقتشيوخهمُ بالنتف من بعد عزة سلام عليكم من وجوهٍ تكشفت على جملة الأعلاج من بعد سُترة

سلام عليكم من بنات عواتِقيسوقهم اللبّاط قَهرا لخلوة سلام عليكم من عجائز أُكرهتعلى أكل خنزير ولحم جيفة غُدرنا ونُصِّرنا وبُدّل ديننـاظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة وكنا على دين النبي محمدنقاتل عمال الصليب بنية ونلقى أمورًا في الجهاد عظيمةبقتل وأسر ثم جوع وقلة فجاءت علينا الروم من كل جانب بجد وعزم من خيول وعدة فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم فنقتل فيها فرقة بعد فرقة وفرسانها تزداد في كل ساعةوفرساننا في حال نقص وقلة فلما ضعفنا خيموا في بلادناومالوا علينا بلدة بعد بلدة وجاءوا بأنفاظ عظام كثيرة تهدم أسوار البلاد المنيعة وشدوا عليها الحصار بقوة شهورا وأياما بجد وعزمة فلما تفانت خيلنا ورجالنا ولم نر من إخواننا من إغاثة وقلت لنا الأقوات واشتد حالنـاأحطناهمُ بالكُره خوف الفضيحة

وخوفا على أبنائنا وبناتنـا من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة على أن نكون مثل من كان قبلنا من الدجن من أهل البلاد القديمة فها نحن يا مولاي نشكو إليكم فهذا الذي نلناه من شر فرقة عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة وإلا فيجلونا جميعًا عن أرضهم بأموالنا للغرب دار الأحبة فأنتم بحمد الله خير ملوكنا وعزتكم تعلو على كل عزة وثم سلام الله قلت ورحمة عليكم مدى الأيام في كل ساعة

فقرر على إثرها السلطان العثماني إرسال قوة إنقاذ بحرية تحت قيادة كمال الريس وأيدن باشا على وجه السرعة وذلك سنة (892هـ /1487م) واستطاع أن يضرب سواحل مالطا وصقلية وسردينيا وكورسيكا ثم خرّب سواحل إيطاليا وإسبانيا وهدّم العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر المتوسط، ولكنها جوبهت في الأخير من قبل الدولة الحفصية في تونس فأفسدت هدف هذه الحملة ولم يكتب لها أن تحقق سوى إجلاء ثلاثمائة ألف أندلسي نحو المغرب والجزائر [10].

أما الوفد الثاني : فأرسله الأندلسيون إلى الدولة المملوكية في مصر والتي لم يستطع قائدها الأشرف سيف الدين قايتباي (1468-1496م) وسيلة للمساعدة سوى إرسال وفد إلى البابا ثم إلى الإسبان لإبلاغهم بأنه يوجد في مصر والشام مسيحيون يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية، ولا يتعرض لهم أحد، وأنهم سيقومون بقتل جميع

المسيحيين وإجبارهم على اعتناق الإسلام، إن قام الإسبان بقتل المسلمين وإجبارهم على التنصر، إلاّ أن الإسبان والبابا لم يهتموا بهذا التحذير ومضوا في مخطط الإبادة الذي بدأوه [11]، إلاّ أن العبء الأعظم في إنقاذ الأندلسيين تحملته الدولة الجزائرية الناشئة حديثا، وبقيادة أسطولها البحري الذي نشأت نواته الأولى بقيادة الأخوين عروج وخير الدين من رحم المحنة الأندلسية وشعار الإنقاذ الذي كان السبب الأول في بروزهما على مسرح الأحداث، خاصة بعد استغاثة الأندلسيين بهما وطلب النصرة وقد تمت الاستجابة لذلك عبر ثلاث مخططات هامة، يهدف أولهما إلى إنقاذ الاطفال والنساء والمشردين الذين حوصروا وطردوا من الأندلس، وأصبحوا بين خيارين أحلاهما مرّ، فإما أن يبادوا داخل وطنهم وإما أن يهاجروا ويتركوا الأوطان نحو بلاد إخوانهم في بلاد المغرب عساهم يشتمون من خلالها رائحة الأندلس، وقد استمر هذا المخطط طيلة القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وذلك بواسطة الأسطول البحري الجزائري، الذي كان يقوم بحملات بحرية علنية وسرية لإخلاء الأندلسيين نحو بلاد المغرب خاصة الجزائر، حيث أرسلت سنة (935هـ/1528م) حملة بقيادة القائد صالح رايس، وأيدن رايس لإنقاذ ستمائة من مسلمي بلنسية المضطهدين عند مصب نهر أوفيلا(ovila) وقد خاضوا معركة بحرية عنيفة ضد البحرية المسيحية الإسبانية في مياه الجزائر الشرقية (البليار)، وفي سنة (992هـ/1584م) قام القائد حسن فينزيانو بنقل حوالي ألفي أندلسي إلى الجزائر من نواحي

(اليكانت)[12]، وبين هذين الحملتين أرسل خير الدين العديد من البعثات إلى الشواطئ الإسبانية وقد بلغت بحسب الروايات التاريخية ثلاث وثلاثون حملة بحرية ناجحة بين سنتي (1528/1584م)، وكان من أبرزها تلك الحملة التي قادها خير الدين نفسه، حيث ذهب في ستة وثلاثين سفينة ناحية الأندلس نقل فيهم عدد كبير من الأندلسيين إلى الجزائر وترك ألف مقاتل لحراسة الأندلسيين الباقين وتكررت عملية الإنقاذ هذه سبع مرات متتالية، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين لوحده إلى شواطئ بلاد المغرب نحو سبعين ألف أندلسي [13]، وبالجملة فإن عدد الأندلسيين المطرودين حسب رواية المؤرخ الإسباني (نافاريتي) بلغت خمسة ملايين نسمة منهم مليونان من اليهود، وقد كان عدد سكان إسبانيا كلها يومئذ ثمانية ملايين نسمة [14].

أما المخطط الثاني فكان يقوم على توفير المتطلبات المادية للأندلسيين المحاصرين والمجوعين في بلادهم، والتكفل بأولئك الفارين والمرحلين من بلادهم نحو بلاد المغرب، حيث أن خير الدين ومن ورائه الشعب الجزائري قد أكرم الأندلسيين أيما إكرام ووسع لهم في أرض الجزائر وتركوا أحرارا في اختيار البقاع والأماكن الصالحة لسكنهم ومزاولة حرفهم.

أما المخطط الثالث فكان شعاره دعم المقاومة الأندلسية لأولئك النصارى الغاصبين، خاصة ثورة جبال البشرات التي اندلعت

يوم 15 ابريل 1568م والتي قادها في البداية أحد المستضعفين المدعو فرج بن فرج والذي خرج في مائتين من المسلمين الذين يخفون إسلامهم وفتك بحامية الحمراء [16]، ثم لجئوا إلى جبال البشرات ولحق بهم كل المسلمين الذين يريدون الخلاص من النير الإسباني واختاروا حينها (فيرناندو دي فالور) قائدا عاما للثورة والتي شملت في توسعها كل بلاد غرناطة القديمة قبل التسليم، وكانت مطالبهم فيها للنصارى المحتلين تمثل الحد الأدنى من الحقوق والمتمثلة في إلغاء القوانين الظالمة والعودة إلى بنود معاهدة التسليم المهينة التي وقّعها أبو عبد الله الصغير (1460-1527م) وكانت البحرية الجزائرية حاضرة منذ الوهلة الأولى لدعم هذه المقاومة حيث أرسل سنة (976هـ/1568م) القائد (علج علي) لينظم حرب العصابات بجبال البشرات بالأندلس، وقد أنزل لهذا الغرض الإمدادات بشاطئ (المرية)، وفي العام التالي أرسل إليه من الجزائر العتاد والذخائر مع المتطوعين الإنكشاريين لمساندة مجاهدي الأندلس، وبالتزامن مع ذلك كانت البحرية الجزائرية تقوم بحملات نحو السواحل الإسبانية قصد الضغط على النصارى أو الأسبان، وإضعافهم، وكان من أبرز تلك الحملات حملة (صالح رايس) الذي قام بمهاجمة السواحل الإسبانية سنة (1543م) وخوضه معركة (روزاس با لا موسRosas Palamos)[15]، وحملة (علج علي) سنة (977-978هـ/ 1569-1570م) الذي قام بضربات متكررة خلال هذه السنة على السواحل الإسبانية ومالطا، إضافة إلى الحملة البحرية لسنة (989هـ/ 1581م) وغارة (مراد رايس) على

(لورقة) وإلحاقه خسائر جسيمة بالسواحل الإسبانية سنة (1602م) وقد أتبعها هذا القائد بحملته الشهيرة سنة (1026هـ/ 1617م) على جزيرة (ماديرة) في المحيط الأطلسي، والتي عاد فيها إلى الجزائر بأجراس كنيستها وذلك إذلالا للبرتغاليين [17].

2 ـ فك الحصار الأوروبي على الشعب الفرنسي

بعد قيام الثورة الفرنسية سنة (1789م) وإلغاء الشعب للنظام الملكي في أوت (1792م) والإعلان عن النظام الجمهوري، دخلت فرنسا في مرحلة تغيير جذري وعلى كلّ المستويين الدّاخلي والخارجي، خاصة في علاقتها مع أوروبا باعتبار أن الدول الأوروبية لم تستصغ بدعة الحكم الجمهوري واعتبرته انقلابا لا يخدم المصالح الأوروبية التي باتت مهددة من عدوى الثورة الفرنسية والخطر المحدق بنظامها الملكي، الأمر الذي جعل فرنسا تدخل في عزلة عن العالم بعد فرض الدول الأوربية حصارا خانقا عليها، وباتت مهددة على جميع الأصعدة فسادت المجاعة وجفت الخزينة من الأموال، الامر الذي جعلها تستنجد بالدولة الجزائرية من أجل إخراجها من هذه العزلة، باعتبار أنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تكسر الحصار المضروب على فرنسا سوى البحرية الجزائرية.

وقد جسد الموقف الجزائري الشامل تجاه هذه المسألة تلك الرسالة التي بعث بها الداي (حسن باشا) ردا على رسالة الشكر التي بعثت بها الحكومة الفرنسية وقد جاء في رسالة الداي[18] : "لن

نرفض أي طلب للجمهورية إذا كان لدينا ما تطلبه منا وعندما يكون في متناولنا، فالمواد الغذائية والخيول الجيدة، هذه هي أهم منتوجاتنا، فالصديق الحقيقي هو ذلك الذي يعلن عن نفسه عند الحاجة، فهذه هي مبادؤنا أننا على استعداد لأن نمدكم بالحبوب وبالمواد المعاشية من كل نوع، وبكلمة واحدة كل ما تطلبونه، لأننا نشعر أنه في غمار الحرب العامة التي تواجهونها ضد مثل هذا العدد من الأمم الأوروبية فإنه من المستحيل أن لا تواجهو صعوبات في اقتناء ما أنتم بحاجة إليه من المواد الغذائية والسلع الضرورية الأخرى".

وقد تمت عملية فك العزلة على الشعب الفرنسي عبر وسائل متعددة كان أبرزها :

- اعتراف الداي حسن (1791-1798م) بالجمهورية الفرنسية الأولى بتاريخ 20 ماي 1793م بعد الرسالة التي بعث بها المجلس التنفيذي المؤقت للجمهورية الفرنسية بتاريخ 03 ماي 1793م والتي شرح فيها للداي التغيرات الطارئة التي حدثت بفرنسا.
- كسر الحصار عبر المساعدات المادية التي كانت تنتقل عبر الموانئ الجزائرية إلى فرنسا، ومن أمثلة ذلك عملية شحن مائة سفينة من ميناء وهران سنة 1793م بخمسة وسبعين ألف قنطار من القمح وستة آلاف قنطار من الشعير، إضافة إلى مساعدات غذائية متنوعة كالصوف والجلود والزيوت واللحوم والخيل وغيرها، بالإضافة إلى كل ذلك أصدر الداي أوامر بفتح أبواب أسواق

الشرق والغرب (القالة والغزوات) أمام السفن الفرنسية المحمية من قبل الدولة الجزائرية.

وقد شهد بذلك المؤرخون الفرنسيون، ومن أبرزهم المؤرخ (باردون) الذي قال : "كانت الجزائر أرسلت بكميات معتبرة من الحبوب لفرنسا التي كانت تعاني القحط"[19].

كما ذكر شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا (1908-1977م) في إلياذته الشهيرة بفضل الجزائر على فرنسا حينما قال :

وجاعت فرنسا. ...فكنا كراما وكنا الأولى يطعمون الطعاما
فأبطرهم قمحنا الذهبي وكم تبطر الصدقات اللئاما
وأوحى له قمحنا غزونا فأطلق هذه القموح سهاما

- المساعدات المالية التي قدّمت إلى فرنسا بصيغة القروض بدون فوائد ربوية منها خمسة ملايين فرنك ذهبي بالإضافة إلى قروض أخرى خصصت لشراء القمح، وقد أشارت إلى الدراسات التاريخية الفرنسية مثل ما كتبه (إيقورنو) : " بل وقد منح الداي الجمهورية الفرنسية أثناء حروب الثورة قروضا بدون فائدة في الوقت الذي كان يزودها أيضا بالحبوب مما أنقذها من القحط".
- التدخل العسكري ضد بعض الدول الأوربية لحماية المصالح البحرية الفرنسية ومن ذلك أنه لمّا أسرت سفينة فرنسية في عرض المتوسط سنة (1795م) من قبل السفن الإسبانية أمر الداي حسن على الفور بإرسال اثنتي عشر سفينة بحرية من نوع المدفعية

لملاحقة السفن الإسبانية وتمكنت فعلا هذه العملية من استرجاع السفينة الفرنسية وإطلاق صراح ربانها[20].

- إعفاء القناصل الفرنسيين من تقديم الهدايا للداي مثل ما هو معترف به دبلوماسيا وذلك تخفيفا على فرنسا.
- تسليم جوازات سفر وإشارات بحرية جزائرية للسفن الفرنسية كتمويه بحري حتى لا تتعرض للاستيلاء عليها من قبل السفن الأوروبية.

ومن كثرة وقوف الجزائر مع فرنسا في محنها كان يشاع في أوروبا مقولة هي : "" لو لم توجد الجزائر فإن فرنسا كانت ستعمل على إنشائها ولو أدى ذلك إلى وزنها ذهبا""[21].

حملة نابليون بونابارت على مصر (1798م)

تمثل الثورة الفرنسية منعطفا جديدا في إعادة بناء العلاقات الدولية السائدة آنذاك، وفي بلورة المصالح المشتركة بين الدول الأوروبية وفق منطق جديد اختلطت فيه الوطنية المتطرفة بحب الغزو من أجل السيطرة، وهو ما جسدته الحركة النابليونية في أوروبا أو خارجها، حيث عمد جيش الثورة على رسم الخارطة الأوروبية من جديد والعمل على تفكيك التحالف الأوروبي القديم وتشتيت أعضائه انطلاقا من توقيع معاهدة الصلح مع بروسيا بتاريخ 15 أفريل 1795م ثم مع هولندا في 16 ماي 1795م وإسبانيا بتاريخ 22 جويلية 1795م، ولم يبق في المواجهة المباشرة مع فرنسا على الساحة الأوروبية سوى النمسا وانجلترا، حيث انفرد نابليون[22] بالنمسا وحقق ضدها

انتصارات عسكرية حاسمة انتهت بتوقيع الهدنة في 18 أفريل 1796م، ورغم محاولات فرنسا المتعددة لإخضاع بريطانيا للأمر الواقع الجديد في أوروبا خاصة بالطرق العسكرية بقيادة نابليون بونابارت ـ الذي خلص في بداية 1798م بأن مشروع إخضاع بريطانيا عسكريا أمر مستحيل وفيه من الخطورة على فرنسا مالا يمكن أن يتوقع، وأن النيل من بريطانيا والضغط عليها لتغيير مواقفها تجاه فرنسا والخضوع للأمر الواقع لا يتحقق إلاّ بضرب مصالحها الحيوية التي تمثل الرئة التي تتنفس منها بريطانيا اقتصاديا وهي تجارتها الشرقية على شبه القارة الهندية، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالسيطرة على مصر وقطع الطريق بين بريطانيا ومصالحها الحيوية[23]، ورغم هذا التبرير الظاهري لتحرك نابليون نحو الشرق والذي يؤيده منطق الأحداث التي شهدتها أوروبا عقب الثورة الفرنسية إلاّ أن المسعى الخفي لكل هذه التحركات هو التوسع والاستعمار، وما اختيار مصر إلاّ لدواعي إستراتيجية يمكن لفرنسا من خلالها ضرب عصفورين بحجر واحد، وكان أولهما عزل بريطانيا عن الشرق وضرب مصالحها وإرغامها على القبول بالأمر الواقع في أوروبا الغربية وهو ما تجسد في المؤتمرات الأوروبية اللاحقة، وثانيهما هو العمل على إضعاف الخلافة العثمانية وذلك بفصل جناحها الشرقي عن الغربي وتحقيق أمر واقع يمكن أن يضغط من خلاله على مواقف الباب العالي وعلى إيّالاته في الشرق والغرب، وتجسد هذا البعد في عمليات الانتشار الواسع الذي انطلق به جيش بونابارت الذي لم يكتف باحتلال مصر بل

تعداها إلى محاولات السيطرة على بلاد الشام، وهو ما يجسد فكرة التوسع والاحتلال التي عزمت فرنسا على تحقيقها عقب الثورة.

وما المواقف المتخذة من قبل بريطانيا والدولة العثمانية كرد فعل تجاه الحركة النابليونية في الشرق إلاّ تأكيدا لتلك التخمينات المفسرة لحقيقة تلك الحركة النابليونية ونكتف في هذه المداخلة بالتركيز على حقيقة الموقف الجزائري الذي اكتسى طابعا إنسانيا داعما للشعب المصري، وينبغي أن ندرك بأن المواقف الإنسانية لا تقف عند حدود الدعم المادي بل إنه في الكثير من الأحيان تكون المواقف السياسية أبلغ من أي دعم مادي باعتبار أنه لا معنى لخبز يقدم وموقف سياسي صامت تماما مثلما يحدث الآن في مواقف الدول العربية اليوم تجاه القضية الفلسطينية لأن الشعب الفلسطيني بحاجة إلى مواقف سيادية أكثر من حاجته للمساعدات المادية.

ويمكن أن نفسر الموقف الجزائري تجاه الحملة الفرنسية على مصر[24] من وجهتين الشعبية والسياسية، أما الشعبية فمنذ أن تسامع الشعب الجزائري نبأ دخول القوات الفرنسية إلى مصر. خاصة عن طريق وفود الحج الجزائرية التي تمر عبر مصر. حتى عمّ استياء شعبي شديد تجاه فرنسا وبات الرعايا الفرنسيون المقيمون بالجزائر مهددون وقد أكدت ذلك رسائل سييلف المؤرخة في (25 و27 ديسمبر 1798م) و(25 جانفي، 07 فيفري 1799م) والتي وصف فيها فقدان

الفرنسيين لمكانتهم التي كانوا يتمتعون بها لدى الناس، حيث أصبح ينظر إليهم بازدراء وعدم اكتراث[25].

وكان لهذا الموقف الشعبي الأثر الأكبر في الموقف السياسي الجزائري تجاه هذه القضية، يضاف إليه التضامن مع الدولة العثمانية بناء على الرسالة الموجهة إلى الداي من قبل الباب العالي والتي طالب فيها من الداي بإعلان الحرب على فرنسا، وينبغي أن لا ننساغ وراء فكرة أن موقف إعلان الحرب أملته الطاعة للباب العالي وليس من منطلق ذاتي بدليل أن الرسالة التي بعث بها السلطان العثماني إلى الداي تحمل في طياتها تبريرات متعددة تصب كلها في محاولة إقناع الداي باتخاذ ذلك الموقف وعمليات الإقناع لا تتوافق مع فكرة فرض المواقف التي تصدر في شكل فرمان وليس عبر الرسائل وأن الاستياء الشعبي كان له الأثر الأبلغ في اتخاذ هذا الموقف والذي اتخذه الداي بعد الاجتماع الموسع للديوان المخول له إتخاذ المواقف السيادية الحساسة، حيث تم إعلان الحرب رسميا ضد فرنسا في ديسمبر 1798م، وبموجب ذلك ألقي القبض على القنصل الفرنسي ومعه ثمانية عشر فرنسيا كانوا مقيمين بمدينة الجزائر كما أرسلت تعليمات لباي قسنطينة تأمره بإغلاق مراكز الوكالة الإفريقية في كل من عنابة والقالة وحجز ممتلكاتها وسجن عمالها المقدر عددهم بـ 98 عاملا[26].

وتجسيدا لموقف الحرب ذلك قامت البحرية الجزائرية كقوة تنفيذية بالقيام بعدة عمليات حربية تجاه السفن والمصالح الفرنسية، وكان الريس حميدو من أشهر الشخصيات التي جسدت ذلك الموقف بعملياته المتكررة ضد السفن الفرنسية أشار إليها دفتر المغانم والتي من أبرزها[27] :

- إحتجاز ومطاردة السفن الفرنسية أينما وجدت
- غزو السواحل الفرنسية والعودة بمغانم متنوعة

وقد بقي هذا الموقف الحربي للجزائر تجاه فرنسا طيلة فترة الاحتلال الفرنسي لمصر وكان من أكثر المواقف التي شكّلت ضغطا كبيرا على فرنسا نظرا لقوة الجزائر على حوض البحر المتوسط، ولما تمثّله من مصالح إستراتيجية لفرنسا.

وخلاصة القول أن نشاط البحرية الجزائرية طيلة تاريخها الطويل لم يبق حبيس الحدود الإقليمية للجزائر ولم تقف عند حدود مصالحها الخاصة وإنما تعدتها إلى المساندة والوقوف إلى جانب الشعوب المظلومة في تحرك إنساني شهدت عليه محطات تاريخية متعددة، اكتفينا بالإشارة إلى النماذج السابقة التحليل، والملفت في التحرك الإنساني الجزائري أنه لم يكن قرين مصلحة مادية أو شروط مسبقة مثلما تتعامل به القوى الكبرى في هذا العالم اليوم والتي لا تطعم جائعا حتى يدفع ثمن ما أطعم به حتى ولو بسلب الشخصية، وأن إثبات هذه الحقيقة تؤكده طبيعة وصورة ونتائج

التحرك باعتبار أن الموقف الجزائري تجاه تلك القضايا المذكورة لم يكن من منطلق الحقيقة المشتركة التي تجمعهم مع الشعوب المتحرك نحوهم بدليل أن عملية الإنقاذ والمساعدة للأندلسيين قد شملت المسلمين واليهود بالتوازي إضافة إلى أن الاختلاف الجذري بين الشعبين الجزائري والفرنسي لم يمنع في لحظة الحصار والجوع والمسغبة التي عاشتها فرنسا عقب ثورتها الشهيرة من تحرك الجزائر إنسانيا لإنقاذ هذا الشعب بدون أي استغلال لهذه الظروف للاستفادة من مصالح شخصية، وأن الغرض من هذا التحرك لخصه الداي حسن باشا في رسالته الموجهة للحكومة الفرنسية بقوله : (فالصديق الحقيقي هو الذي يعلن عن نفسه عند الحاجة، فهذه هي مبادؤنا)[28] (قنان ص. 57).

مما يبين أن حقيقة التحرك الإنساني للبحرية الجزائرية أملته المبادئ والقيم التي تكونت عليها هذه البحرية منذ نشأتها سواء العامة أثناء الفتح الإسلامي أو الخاصة تحت شعار الإنقاذ على يد الإخوة بربروسا، والملفت للإنتباه أن الجزائر دفعت ثمنا غاليا نظير وقوفها الإنساني، سواء مع فرنسا أثناء الحصار وما ترتب عنه من ديون أو تجاه المسألة المصرية وما سببه من حنق فرنسي على الجزائر وكان كليهما من الأسباب البارزة التي أدخلت الجزائر عصرا مظلما من الاحتلال الذي أفقدها كل عوامل القوة[29] ولم تستفق منه الجزائر إلاّ وهي في صنف عالم متخلف بعد ما كانت سيدة في البحر المتوسط.

الهوامش :

1 ـ بروديل فرنان. البحر المتوسط، ترجمة عمر بن سالم، تونس، 1990، ص. 123.

2- Ferhat (H) : (Le Maroc et la mer), R.J.P.E.M, n°6, 2ème trimestre, 1979, p. 25

3 ـ بروديل فرنان. البحر المتوسط، ترجمة عمر بن سالم، تونس، 1990، ص. 123.

4 Des pois (J) : (Le destin de l'Afrique du Nord, remarques géographiques), B.E.P.M, n°206,-1er trimestre, 1949, p34.

5 ـ أسد رستم، مصطلح التاريخ، ط.3، منشروات المكتبة العصرية، بيروت، ص.1 وما يليها

6 ـ نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2000م، ص.187.190

7 ـ لوي كارديك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط2، 1989م، ص 69 وما بعدها.

8 ـ المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، ج4، بيروت، 1968م، ص 527 / الأندلسيون المواركة، عادل سعيد شناوي، ط1، مطابع أنتر ناشيونال، القاهرة، 1983م، ص. 190-191

9 ـ محمد علي أورخان، مأساة الأندلس وموقف العثمانيين، مجلة حراء، ع.5، أكتوبر/ ديسمبر 2006

10ـ أنظر نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده، مكتبة الطالب الجامعي، ط.1، مكة المكرمة، 1988

11 ـ سلمى الخظراء الجيوسي، الحضارة الإسلامية في الأندلس ن ج1، مقال (ليونارد باتريك هاريف، تاريخ المورسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة)، ط.2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م، ص. 321./ محمد علي أورخان، مرجع سابق.

12 ـ نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 202، 203)

13 ـ محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس القاهرة، 1949م، ص 284/ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ط.2، 1982، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 56.

14 ـ عبد الرحمان الجيلالي، المرجع سابق، ص 53-54.

15 ـ عادل سعيد شناوي، مرجع سابق، 150 وما بعدها

16 ـ بحموش نعيمة. مساهمة بحرية أيالة الجزائر في حروب الإمبراطورية العثمانية البحرية. ماجيستير. ص .103

17 ـ نصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص، 205.

18 ـ جمال قنان، العلاقات الفرنسية الجزائرية 1790-1830، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، 2005، ص، 57

19 ـ مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج.2، ط.1، دار البعث، الجزائر، 1985، ص 138

20 ـ نفسه، ص، .150

21 ـ جمال قنان، مرجع سابق، ص. 20)

22 ـ ولد نابليون بونابارت سنة 1769م بجيزرة كورسكا وهو من أصل إيطالي، دخل في شبابه في المدرسة العسكرية الفرنسية والجيش الفرنسي، ولمّا بلغ سن السابع والعشرين أوكل إليه قيادة الجيش بالنظر لما أظهره من مهارة فائقة في شؤون الحروب، وخاض حروب متعددة في أوروبا وخارجها. أنظر. (جفري براون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة على المرزوقي، مطبعة الأهلية الأردن، ص 391 وما بعدها).

23 ـ جمال قنان، مرجع سابق، ص، 91 وما يليها)

24 ـ إسماعيل أحمد باغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2، دار المريخ ن الراض، ص. 18

25 ـ قنان، المرجع السابق، ص. 100.

26 ـ جمال قنان، مرجع سابق، ص، .98

27 ـ البير دوفال، الريس حميدو، تعريب محمد العربي الزبيري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص.31 وما بعدها / عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص. 284.

28 ـ قنان، مرجع سابق، ص..57

29 ـ للاستزادة أكثر في هذه المسألة أنظر :

ـ محمد الميلي، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، ع.14-15، 1973، ص.58

ـ أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، الأصالة، ع. 14-15، 1973، ص.12

ـ نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2000، ص. 26-27

- GAZEL.Introduction.In HistoiRe et historie de l Algérie.paris E.ALCAN.1931.p.6-7